وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة محمد خيضر بسكرة
كليـــة العلـــوم الإنســـانيـــة والاجتماعيـــة
قســـم العلـــوم الإنســـانيـــــة

Université Mohamed KHIDHER -Biskra
Faculté des Sciences Humaines et Sociales
Département des Sciences Humaines

مقياس النشـاط الحرفـي والتجـاري
لطلبـة السنـة أولـى مـاسـتـر تخصـص تـاريـخ وسـيـط

أسـس الحـرف والصنـاعـات في الغرب الإسـلامـي (2/2)
(العوامل المؤثرة في النشاط الحرفي والتجاري)

القطـن والكتـان:

القطـن: عرفت زراعته عند العرب المسلمين إنطلاقا من بلاد الهند، وعن طريق الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب انتشرت زراعته في المناطق المنخفضة عزيرة المياه ذات التربة الطمية، من أهم مناطق زراعته المسيلة وتونس، يذكر ابن حوقل في ذلك: " تونس التي كان يحمل منها (القطن) إلى القيروان فيظهر الانتفاع به "، كذلك في مدينتي داي و تادلة حسب ما أشار إليه الإدريسي: " ويزرع بها أي بمدينة داي و بأرضها كثير من القطن، ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي، ومن مدينة تادلة يخرج القطن ويسافر به إلى كل الجهات "، إضافة إلى البصرة وأم ربيعة.

من بلاد المغرب انتقلت زراعته إلى إسبانيا حيث أنتج في إشبيلية وكورة رندة.

الكتـان: يحتاج في زراعته تربة خصبة وماء غزير، تتميز خيوطه بالدقة والمرونة والطول والصلابة، يستعمل في صناعة الملابس والحبال المتينة، أول من أشار إليه ابن حوقل على أنه يزرع في المناطق الممتدة من إفريقية إلى تاهرت وفاس، ومن أهم مناطق زراعته مدينة كرت في المغرب الأقصى حسب ما جاء به صاحب الاستبصار بأنها بصرة الكتان: " وتعرف أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون بالكتان "، في الأندلس اشتهرت إلبيرة ومنطقة جبل شلير وبلنسية والمرية.

قصـب السكـر: انتشرت زراعته في الكثير من مناطق بلاد المغرب خاصة سبتة وأغمات وبلاد السوس، ومنها يسوق إلى باقي المناطق وحول كثرته في بلاد السوس ويذكر صاحب الاستبصار: " وهي أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة "، في الأندلس اشتهرت اشبيلية والبيرة وغرناطة والمرية.

إضافة إلى زراعات أخرى مثل الحناء والكمون والكراوية والنيلج والزعفران والعصفر التي تدخل في صناعة الأصباغ، كذلك مختلف أنواع الفواكه التي تدخل في الصناعة أو في التجارة كالتين والعنب والرمان والسفرجل والتفاح والجوز واللوز والنارنج والتمر (البلح) ومختلف أنواع النباتات العطرية والطبية كالنرجس والورد والبنفسج والسوسن والريحان والياسمين والنسرين والحبق والقرنفل الكهرباء (مادة صمغية تدخل في تحضير بعض أنواع الأدوية كانت تنتج بمدينة شذونة بالأندلس).

الدكتورة ف. شلوف جامعة بسكرة

الغابـات: المصدر الرئيسي للثروة الخشبية التي تستخدم في الكثير من الصناعات كصناعة السفن والأبواب، من أهم أنواع أشجار هذه الغابات التي تنتشر في كل ربوع بلاد المغرب خاصة الجزء الشمالي منه أشجار الصنوبر والأرز والعرعر والزان والبلوط والصفصاف والخروب والدردار والسرول والنخل وشجر المقل (يستعمل في صنع إطارات الغرابيل وشجر الخزم يصنع من لحائه الحبال دون أن ننسى الحلفاء).

الثـروة الحيوانيـة: كانت تربية المواشي في بلاد المغرب تقوم جنب إلى جنب الإنتاج الزراعي نتيجة اختلاف السطح والمناخ كما أشار إليه الحموي حول البصرة بقوله: " البصرة مدينة كبيرة وهي أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها ضرعا ولكثرة البانها تعرف ببصرة الذبان"، ويصف ابن خلدون الحياة الرعوية لبعض القبائل في المغرب الأوسط بقوله: "ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل منهم بالفلح ودواجن سائمة "، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين، وكان الرعي من الحرف الأساسية التي عرفتها المنطقة خاصة التي في المناطق التي يقل فيها التساقط.

كان لهذه الثروة صدى لدى الفقهاء، كذلك العرف الذي نظم العلاقة بين الراعي وصاحب الغنم فمثلا في إفريقية كان العرف ينظم العلاقة بين الراعي وصاحب الغنم؛ حيث يرعى بغنمه في الأطراف في الربيع ويداويها ويجز صوفها وله في كل مائة رأس من الغنم عشرة وإذا ادعى موت شاه فعليه البينة والقرائن إضافة إلى طريقة أخرى وهي الرعي مقابل النصف وهو ما يعرف بالجعل وهذا لندرة المراعي، ومن هذه الثروة الحيوانية نجد:

الأغنـام: كانت منتشرة بكثرة في إفريقية وتيهرت وتلمسان وتازة ومعظم المناطق الداخلية والهوامش الشمالية للصحراء، إلى جانب الأغنام نجد الماعز والأبقار والإبل وحتى النحل والدجاج والحمام وفي هذا الإطار نذكر ما جاء به ابن حوقل في وصفه لتيهرت: " وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والراذين الفراهية (الخيول العربية) ويكثر عندهم العسل والسمن " وعن وهران يقول: " وأكثر أموالهم الماشية ولهم منها الكثير "، وكدليل على وفرتها ما ذكره حسن الوزان عند حديثه عن الحياة الرعوية لسكان إقليم بني راشد قرب تيهرت في قوله: " يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم ولهم عدد وافر من الجمال والخيل" ويذكر عن البطحاء قرب تلمسان وصفه لأحد الرعاة بقوله: " وتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حد أصبح هو بنفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية وأن له زهاء خمسمائة من الخيل وعشرة آلاف من الغنم وألفين من البقر ".

إضافة إلى الوفرة نجد أيضا الجودة وهذا ما يذكر بشأن خيل تلمسان التي كانت تسمى بالخيل الراشدية ولها فضل على سائر الخيول في هذه النقطة يذكر صاحب الاستبصار حول خيول جبل فزاز بالمغرب الأقصى: " وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها وهي مدورة القدور حسنة الخلق والأخلاق "، إضافة حيوان اللمط الذي يصفه البكري بقوله: " ومما في هذه الصحراء من الحيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها وكلما كبر الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العوائق منها وهي التي طال قرناها لكبر سنها ".

يستعمل جلدها في صنع الدروع اللمطية نجد كذلك الثروة المائية (النهرية والبحرية) وهي ثروة هائلة سواء من الأسماك أو صوف البحر (الإسفنج) والمرجان الذي اشتهرت به الدولة الحمادية وكان يستخرج من مرسى الخرز (القالة) ويصطاد بآلات ذوات ذوائب فتدار الآلة في أعلى المركب فتلتف الخيوط على قاربها من نبات المرجان في هذا الشأن يذكر ابن حوقل: " ومرسى الخرز (القالة حاليا) أيضا غير أنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار ولا أعرف في شيء من البحار له نظير في الجودة ولا يوجد في مكان غير هذه القرية المدعوة المرسى الخرز"، أما الإدريسي: " مدينة مرسى الخرز عمارة أهلها على صيد المرجان ".

تنتشر عملية الصيد في كل سواحل المتوسط وسواحل المحيط الأطلسي أشهرها في قابس وصفاقص وبنزرت وسبتة ووادي شلف وملوية وسبو دون أن ننسى النحل والدجاج والحمام والحجل والطاووس، نفس التنوع والوفرة نجده ببلاد

الأندلس حيث تنتشر في سفوح الجبال والأودية والمروج الأندلسية تتمثل في الأغنام والأبقار والخيول والبغال التي تنتشر بـ: اشبيلية وجيان وميورقة وقادس وطليطلة وقرطبة مع الثروة المائية، وأيضا كانت هذه الحيوانات تستعمل في الصناعات الغذائية (حرفة الجزارة) وصناعة النسيج والجلود وحتى الحرث والفلاحة والمعاصر والمطاحن والتجارة والحروب.

المـواد المعدنيـة:

الذهـب: حسب ما جاءت به المصادر التي تعود إلى فترة العصر الوسط فإن الذهب قليل ببلاد المغرب ويقول المراكشي أنه مستورد من بلاد السودان، غير أنه يوجد ببعض مناطق الجنوب خاصة سجلماسة وأودغست (موريطانيا حاليا) جنوبي المغرب الأقصى و يعتبر من أجود ذهب الأرض على حد تعبير البكري.

توفر هذا المعدن بكثرة في بلاد المغرب خلال فترة المرابطين بسبب تأمينها لطرق تجارته من السودان عن طريق ورجلان كأهم محطة إضافة سجلماسة وفاس وتلمسان والدراسات الحديثة أثبتت وجود هذا المعدن في الصحراء الجزائرية.

الفضـة: متوفرة بكميات قليلة وكانت مناجمها متفرقة بالمغرب الأقصى أشهرها مدينة زجندر حيث اشتغل أهلها باستخراجه من مناجمها كذلك جسن ووركناس وتادلة وتامدلت كما أشار البكري إلى منجم تازرارت من جبل درن (الأطلس)، و تستخرج أيضا من إيجلي قاعدة بلاد السوس وفي بلاد المغرب الأوسط في مجانة وجيجل.

الحديـد: ينتشر إنتاج الحديد في العديد من أماكن المغرب الأقصى بين سلا ومراكش في موضع يدعى ابستنار وقرب فاس وبإقليم تازة وجبل دمنسرة بالأطلس وجبل بن بوسعيد وجبال تفسرة جنوب تلمسان وبالقرب من وهران وعنابة يقول بشأنها بالنسبة للحديد: " أن بونة بها معادن الحديد كثيرة ويحمل منه إلى الأقطار الغزير الكثير " كذلك ببجاية.

النحـاس: وجد بمنطقة السوس بالقرب من مدينة سجلماسة ومدينة داي حسب ما أشار إليه الإدريسي في قوله: " ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيرة من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرخ كما يتشرخ غيره من أنواع النحاس "، يستخرج من جيجل وبجاية بالنسبة لطريقة تخليص المعادن من الشوائب فمثلا في الأندلس لتخليص النحاس من الشوائب يلقى بالمعدن المستخرج من الأرض في تيار من الماء الجاري فيحمل التيار المواد الترابية لخفتها ويرسب المعدن الخالص عند مصب النهر أما طريقة المسلمين تمثلت في دهن المعدن المستخرج بالزيت حيث تتشبع جزيئاته وتخفف وتصير هي المحمولة من التيار وترسب المواد الترابية عند المصب أثبت علماء ألمان قبيل الحرب العالمية الثانية أن المعدن الحاصل بهذه الطريقة هو أخلص وأصفى.

البرونز والرصاص في مجانة وجيجل.

الزنك والتوتياء (تستعمل في تحويل النحاس الأحمر إلى أصفر) يوجد بمنطقة السوس وجبال الونشريس.

الزئبـق: يقول حوله البكري: " بقرب مدينة أرزيو جبل كبير وفي هذا الجبل معدن الحديد والزئبق".

كذلك الزفت والقطران والصمغ يستخرج من الجبال المحيطة ببجاية في ذلك يقول الإدريسي: " ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ".

معادن أخرى ثمينة كالصدف الثمين المستخرج من نهر فاس والياقوت وقد أشار إليه البكري بقوله: " هناك جبل يقابل جبل هزرجة فيه أجناس من الياقوت المتناهي في الجودة وحسن اللون ".

مواد تدخل في البناء كالجص والصلصال والرمال مختلفة الأنواع وكانت قريبة من مدينة فاس وبسكرة كذلك:

الرخـام: يستخرج من العاصمة تونس يصفه العبدري: " بأنها في نهاية الاتساع ونهاية الإتقان والرخام بها كثير وأكثر أبواب ديارها معمول منه "، ويستخرج أيضا من سفوح جبل طوبقال من النوع الجيد ذو البياض الناصع والصافي.

الملـح: (الذهب الأبيض) من المعادن الهامة التي كانت متوفرة في بلاد المغرب الإسلامي، مثلت موردا هاما من موارد التجارة يستخرج من أوليل التي تعتبر الملاحات الواقعة بصحراء صنهاجة ويقول حول موقعها ابن حوقل: " على مسافة شهر واحد من مدينة أودغست وشهر ونصف شهر من مدينة سجلماسة "، أيضا قوله: " أوليل معدن للملح بلاد المغرب "، يذكرها أيضا البكري في قوله: " ومعدن للملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطئ البحر "، نفس الشيء يأتي به صاحب الاستبصار يعتبرها من بلاد قبيلة جدالة البربرية بينما الإدريسي وابن سعيد المغربي يعتبرانها من بلاد السودان في رواية مفادها: " ليس في بلاد السودان ملاحة غيرها "، ويستخرج أيضا من بلاد حاحة وجبل تاجمرت قرب مراكش ومن بسكرة حسب قول البكري: " أنه يوجد في بسكرة جبل ملح يقطع فيه الملح كالصخر الجليل ومنه كان عبيد الله الشيعي وبنوه يستعملون في أطعمتهم "، كما يشير ابن أبي زرع إلى وفرة الملاحات في فاس في قوله: " وتفوق مدينة فاس غيرها من البلاد بمعدن الملح الذي عليها ليس في معمور الأرض معدن ملح مثله وهو على نحو ستة أميال منها وطول هذه الملاحة نحو ثمانية عشر ميلا ... وفي هذه الملاحة أصناف من الملح لا يشبه بعضها بعضا في الألوان والصفات "، ويذكر الونشريسي طريقة إستغلال هذا المعدن في قوله: " قوما بصحراء المغرب كان لهم معدن (أي منجم) ملح يستخرجونها من جوف الأرض ويقطعونها ألواحا كألواح الرخام ... "، وهناك ما يستخرج من السبخات ويترك يجف في الشمس ليكسب الصلابة.

كانت هذه المادة أساسية في تجارتهم واستخدم كعملة وسلعة لمقايضة ذهب السودان وهناك من يشير إلى أن مبادلته كانت تتم وزنا بوزن مع الذهب.

بالنسبة للأندلس: توفرت على الكثير من المعادن وبكميات كبيرة كالذهب المستخرج من رمال نهر لاردة أحد روافد نهر الإبرة ونهر تاجة أو نهر طليطلة، وأعظم منجم في منطقة شنب ياقوب إضافة إلى الفضة والحديد المنتشر بكثرة خاصة حصن " قسطنطينية الحديد " إذ يذكر الإدريسي أنه يوجد: " بجباله معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه وكثرته "، ومنه كان يصدر إلى جميع أقطار الأندلس كذلك النحاس والرصاص والقصدير والزئبق والكحل والتوتيا والزجاج والأحجار الكريمة والملح والكبريت.

انتهى

أستاذة المقياس: ف. شلـوق

الدكتورة شلوق جامعة بسكرة